مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية

المجلد 15 العدد 4 (السداسي الثاني 2023م)
ص. 135 – 164

البشير الابراهيمي رجل الفكر والعلم والإصلاح - قراءة في فكره السياسي-

Al-Bashir Al-Ibrahimi, a man of thought, knowledge and reformation- Readings in his political thought

أ.د سامية جباري

جامعة غرداية (الجزائر)

djebari.samia@univ-ghardaia.dz

تاريخ الاستلام: 2022/11/06 تاريخ القبول: 2023/07/31 تاريخ النشر: 2023/12/31

ملخص:

يعتبر البشير الابراهيمي أحد أعمدة الفكر السياسي المعاصر بلا منازع، لم يكن رجل دعوة وعلم فقط، بل كان سياسيا محنكا، استطاع أن يصوغ من فكره مرجعا للدعوة إلى الله بالتجديد في وسائلها وفي خطابها، قاوم الغلو والتطرف في فهم الدين، وكشف البدع والخرافات في العقيدة والتوحيد، ووجه اهتمامه للدفاع عن القضية الجزائرية وتوحيد الجهود لنصرتها إقليميا ودوليا، حاملا هموم الأمة العربية والإسلامية داعيا إلى وحدتها ونصرة قضاياها. حتى عدّ من رواد الأمة المصلحين، كل مواقفه سنتعرف عليها من خلال هذه الدراسة

الكلمات المفتاحية: البشير الإبراهيمي، الفكر السياسي المعاصر، علماء الجزائر

Abstract

Al-Bashir Al-Ibrahimi is considered one of the undisputed pillars of contemporary political thought. He was not only a man of knowledge, but a seasoned politician. He was able to formulate from his thought a reference for the da’wa by resisting extremism in understanding religion, exposing heresies and myths in faith, unification, and directed his attention to defending the Algerian cause and unifying efforts to support it , Bearing the concerns of the Arab and Islamic nation, calling for its unity and support for its causes, until he was counted among the reformed pioneers of the nation.

Keywords: Al-Bashir Al-Ibrahimi; political thought ;Algerian scholars

1. مقدمة:

البشير الإبراهيمي واحد من أبرز العلماء والمفكرين المعاصرين، حمل منذ صغره هموم الأمة العربية والإسلامية، ولم يمنعه استعمار بلاده أن يخوض معركته الإصلاحية منتفضا مجاهدا في سبيل تحرير وطنه، مساندا القضايا العربية إقليميا ودوليا، درس وتعلم وكابد المحن باذلا قصارى جهوده للدفاع عن الحق والدعوة إلى الإصلاح الشامل ضمن المبادئ الكبرى للدين الإسلامي، رجل لم يكن كباقي الرجال في زمانه، انخرط في العمل الاجتماعي والسياسي في زمن التضييق على المفكرين والمصلحين، حمل القلم صادحا ثائرا ومرشدا ومبلغا لينشر الوعي في صفوف الشعوب المقهورة الواقعة تحت ربقة الاستعمار. ولأجل الوقوف عند الفكر السياسي الإصلاحي لدى البشير الإبراهيمي، انطلقت من الإشكالية التالية: هل اقتصر الدور السياسي للبشير الإبراهيمي إبان فترة الاستعمار على النصح والتوجيه والإرشاد، أم هل كانت له مشاركات فاعلة في الحقل السياسي ساهمت في صناعة النهضة والتغيير المنشود؟ ثم ماهي منطلقات فكره السياسي التي مكنته من إحداث ثورة فكرية وإصلاحية شاملة؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات وقفت عند البشير الابراهيمي كونه رجل علم وتربية وإصلاح، في مقدمة أبرزت من خلالها أهم محطات حياته بدء بمولده، ثم مراحل تعلمه وبداياته مع جمعية العلماء المسلمين، ثم حددت منطلقات فكره السياسي مبرزة أهم جهوده السياسية والإصلاحية لمواجهة المساعي التدميرية للمستعمر الفرنسي إبان ثورة التحرير. والوقوف عند جهوده السياسية المحلية والإقليمية والدولية والإشادة بأدواره الداعمة للتحرير وتوحيد القوى العربية تحت راية واحدة للدفاع عن القضايا العربية والإسلامية. وخلصت في الأخير إلى خاتمة مبرزة نتائج البحث.

وكل ذلك باستخدام المنهج الوصفي التحليلي الذي يفي بالغرض من هذه الدراسة.

أما عن أهم أهداف هذه الدراسة فقد تمحورت حول إبراز جهود علماء الجزائر الإصلاحية، وتغيير تلك الصورة النمطية التي غيّبت دورهم كأصحاب فكر سياسي، ورفع الحجاب عن ذلك بإظهار قدرتهم على المشاركة في توجيه الرأي العام من منظور الفكر السياسي المعاصر.

اختيار البشير الإبراهيمي كنموذج للعلماء الجزائريين الذين ضحوا في سبيل الدين والوطن، وقد ساروا حاملين على عاتقهم الحفاظ على المرجعية الدينية والهوية الوطنية والصدح بالحق في كل المحافل الوطنية والدولية.

توجيه الرأي العام أن للعلماء دورهم السياسي حتى لا يبقوا حبيسي التنظير أو التقاعس عن أداء واجبهم تجاه دينهم ووطنهم لاسيما إذا ألمت بهم المكروهات. وأن أوطانهم بحاجة إليهم دعما للمواقف التحررية والمبادئ المتبناة لما يملكون من تأثير كبير في نفوس الشعوب، ما يمكنهم من شحذ همم للنضال وللاستماته في سبيل الدين والوطن.

وكذلك إبراز جهود جمعية العلماء المسلمين بإطاراتها العلمية وإساهماتها في التعريف بالقضية الجزائرية خارج أسوار الوطن والتمكين من مساندتها في المحافل الدولية.

2. لمحات من مولده ونشاطه العلمي والإصلاحي:

2-1 مولده وتعليمه:

ولد محمد البشير الإبراهيمي بن محمد السعدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي الرابع عشر شوال 1306 هجرية الموافقة لـ: 13 جوان 1889م. نشأ وسط عائلة محبة للعلم متشبثة بتعاليم الدين، ذات مكانة مميزة وسط البيوتات في قريته، فعملت على تربيته تربية قوامها الدين والخلق[1] القويم، كما لقي منذ نشأته الأولى رعاية عمه الذي تولى تعليمه وتربيته، فحفظ على يديه القرآن وعمره لم يتجاوز الثمان سنوات كما حفظ ألفية ابن مالك، وتلخيص المفتاح، يؤكد ذلك ابنه طالب الإبراهيمي بقوله: "نشأ محمد البشير الابراهيمي في بيت أسّس على التقوى، من بيوتات العلم والدين، وقد أتمّ حفظ القرآن الكريم على يد عمه الشيخ المكي الإبراهيمي الذي اكتشف مواهبه المبكرة، وكان له الفضل في تربيته وتكوينه، حتى جعل منه ساعده الأيمن في تعليم الطلبة.[1]"

أخذ البشير الابراهيمي على عاتقه الاستزادة من العلم وطلبه، رغم سياسة التجهيل التي مارسها الاستعمار الفرنسي ضد أبناء الجزائر، وحرمانهم من التعليم بغلق المدارس القرآنية ومدارس التعليم الحرة، فإن ذلك لم يمنعه أن يشق طريقه في طلب العلم ليقينه الكبير بأهداف الاستعمار المتعلقة بطمس الهوية ومحاربة الدين واللغة العربية فاجتهد في هذا المجال ليتصدى لكل تلك المحاولات، إيمانا منه بضرورة التمسك بالمرجعية الدينية للجزائريين والحفاظ على هويتهم، وبالرغم من إقامته في عمق الريف الجزائري بعيدا عن حياة المدن التي كانت توفر لساكنيها ظروفا أسهل للدراسة والتعليم إلا أنه أقبل على العلم والمعرفة بشراهة وتمكن في ظروف وجيزة أن يستوعب ويفهم ما كان يتجاوز سنة بكثير.

[1] آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، البشير الابراهيمي، ج9/1

وفي ظل الخناق الذي مارسته السياسية الاستعمارية في حرمان الجزائريين من حق التعليم، قرر الإبراهيمي الهجرة إلى جانب والده، فكانت فرصة قيضها الله له للقاء ثلة من خيرة العلماء من الأزهر والمدينة المنورة ومن كل التخصصات التي ساهمت في صياغة فكره التربوي والعلمي والاصلاحي، فاستزاد من طلب العلم ما أهله أن ينال منصب محاضر بالحرم المدني، حيث كانت وجهته مشرقية " نحو المدينة المنورة عام 1911، مرورا بمصر التي مكث بها ثلاثة أشهر، وهناك التقى بعدد من علمائها وأدبائها وشعرائها، وحضر بعض دروس العلم في الأزهر، وعندما استقر بالمدينة المنورة درس فيها على كبار علمائها -الوافدين من كل أنحاء العالم الإسلامي- علوم التفسير والحديث، والفقه، والتراجم، وأنساب العرب، وأدبهم ودواوينهم، كما درس علم المنطق والحكمة المشرقية، وأمهات كتب اللغة والأدب، ثم أصبح يلقي الدروس للطلبة في الحرم النبوي، ويقضي أوقات فراغه في المكتبات العامة والخاصة باحثا عن المخطوطات." [1]

لقد سخّر المرحلة الأولى من حياته في طلب العلم ولقاء العلماء والمفكرين خارج وطنه الجزائر، وعمل خلال تلك الفترة على مد الجسور بين الجزائريين وإخوانهم المشارقة لما عانوه من اضطهاد ونفي جراء سياسة المستعمر الرامية إلى قمع صوت المصلحين، وهناك سنحت للإبراهيمي فرصة اللقاء مع رواد الأمة من المصلحين لمناقشة أوضاع البلدان العربية الواقعة تحت قبضة المستعمر، وقد التقى حينها بابن باديس مشجعا إياه على حركته الإصلاحية في الجزائر، واتفق معه على التعاون في مهمته الإصلاحية، حيث "كان يقضيان جل وقتهما في البحث في الوضع المتردي بالجزائر واتفقا على الالتحاق برواد الإصلاح العربي من أجل تجسيد العمل الإصلاحي الذي انطلق في مصر.. وكان هذا العمل يحمل طابع التجديد من الناحية الدينية والثقافية والسياسية." [2]. كما حاضر في دار الدعوة والإسلام التي أسسها الشيخ رشيد رضا، " وقد مكنته تلك الاتصالات والدروس من الاطلاع على الأفكار الإصلاحية والتأثر بها وخاصة أفكار رشيد رضا الذي اعتبر وفاته خسارة كبيرة للعالم الإسلامي." [3]

[1] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج1/9-10

[2] مقال الابراهيمي العالم المصلح، روجي قارودي، 140

[3] محمد البشير الابراهيمي في قلب المعركة، أبو القاسم سعد الله، ص9

2.2 مسيرته الإصلاحية:

بعدما اشتدّ عود الإبراهيمي ونضج فكره وغزر علمه رجع إلى موطنه الأصلي ليقوم بدوره الإصلاحي والتربوي، فكان له ذلك سنة 1920، وهذه الفترة تعد حاسمة في نشاط الإبراهيمي الإصلاحي والتربوي، فقد رجع "وفي مخيلته فكرة حركة تحيي الإسلام والعربية في الوطن وتنشر العلم وتبعث الأمة." [1] وقد تلازمت فكرته هذه مع مجهودات ابن باديس في مجال الإصلاح والتربية والثقافة فقد كان منبهرا بما حققه هذا الأخير من نتائج، فبدأ نشاطه بتأسيس مسجد ومدرسة رافضا الوظيفة تحت الوصاية الفرنسية وتفرغ لمهمته التربوية كما مارس التجارة كمورد مالي يعيل به عائلته، متواصلا مع الشيخ عبد الحميد بن باديس لتنفيذ الفكرة الراسخة لديه بضرورة النهوض بالأمة.

فكانت بداياته مع جمعية العلماء المسلمين التي تأسست سنة 1931، متعاونا مع رئيسها وثلة من العلماء المخلصين للدين والوطن في صدّ حملات المستعمر الهادفة إلى جعل الجزائريين جزء من فرنسا لسانا وشرعة واعتقادا، فكانت الجمعية لسان حال الشعب الجزائري آنذاك صارخة بالإسلام دينا والعربية لغة والجزائر وطنا، وكان للإبراهيمي دورا بارزا في الجمعية حيث وضع دستورا لها وقانونها الأساسي، واشتغل منصب نائب رئيس الجمعية ثم تكفل بالمقاطعة الغربية من القطر، وكثف نشاطه وكان من نتاج ذلك تأسيس مدرسة دار الحديث سنة 1937 وكانت مركز إشعاع ديني وعلمي وثقافي. [2]

لم يكن الإبراهيمي بفكره الإصلاحي أن تسكُت عنه فرنسا أو تتركه يحيي في الأمة نهضتها ويعزز لديها الشعور بالانتماء للدين واللغة والوطن، فما لبث أن نفاه المستعمر وشدّد عليه الخناق، ولم يلبث مدة طويلة حتى علم بوفاة الإمام عبد الحميد بن باديس، وقد انتخبه أعضاء الجمعية رئيسا بالإجماع وهو في منفاه، وقد تحمل المسؤولية غيابيا وباشر أعماله بالمراسلة والتواصل مع الفاعلين فيها. إلى أن أطلق صراحه 1943، هنا باشر مهمته بعزم وإصرار وأصبح "قائدا للحركة الدينية والعلمية والثقافية في الجزائر يجوب ربوعها معلما موجها ومرشدا، يوحد الصفوف ويؤسس المدارس والمساجد والنوادي ويهيئ العقول لساعة الصفر التي كانت تخطط لها نخبة من الحركة السياسية." [3]

---

[1] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، 1/ 10

[2] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، 10/1

[3] نفسه، 10/1

ثم اعتقل سنة 1945، وذاق الأمرين لكنه بعد خروجه من السجن لم يوقف نشاطه الإصلاحي ولم تخب فيه العزيمة القوية لمحاربة المستعمر ودحض مخططاته التغريبية للشعب الجزائري فأسس جريدة البصائر وكان قلمه فيها صادحا بالحق كما أسس معهدا تخرج منه كبار المصلحين والثوريين الذين حملوا مشعل الحرية والنهضة، ثم كانت رحلته مرة أخرى إلى دمشق 1952 هنا ركز على نشاطه السياسي والتعريف بالقضية الجزائرية دوليا ومسائل أخرى تمثل أساس مشروعه الفكري الإصلاحي الذي سنلقي عليه الضوء في التعرف على مشروعه النهضوي وفكره السياسي.

1.3 وقفات مع فكره السياسي:

إن المتتبع لأعمال الشيخ البشير الإبراهيمي وبعضا من آثارها الباقية، سيجد كمّا هائلا من المضامين الفكرية والسياسية والإصلاحية التي جاهد لأجلها، والتي تعتبر ثمرة مجهوداته في مواجهة الاستعمار الفرنسي على إثر محاولاته طمس هوية الشعب الجزائري وإبعاده عن دينه، لقد كان لتربيته وشرف أسرته المحبة للعلم الدور البارز في تكوينه على حب الدين والوطن، وكانت رحلاته الزاد المعين له على مواجهة التحديات بما ناله من شرف العلم هناك ولقاء العلماء والمفكرين المصلحين الذين توحدت كلمتهم على ضرورة النهضة بالأمة الإسلامية بالتجديد في أساليب النهوض بها وفق معطيات المرحلة التي تعاني فيها معظم الشعوب العربية والإسلامية التخلف والأزمات وضغط العدو الأجنبي.

والإبراهيمي في تعاطيه للسياسة يدرك الغرض منها وهي إيجاد الأمة بمقوماتها، فاصلا بين قشور السياسة ولبابها، محددا للشروط الواجب توفرها حتى تؤتي ثمارها وإلا فلا فائدة ترتجى منها، "إن السياسة لباب وقشور، ولباب السياسة بمعناها العام عند جميع العقلاء، هو عبارة واحدة: إيجاد الأمة، ولا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس، ولغة، ودين، وتقاليد صحيحة، وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة، فوجود تلك المقومات شرط لوجودها، وإذا انعدم الشرط أنعدم المشروط، ثم يفيض على الأمة من مجموع تلك الحالات إلهام لا يغالب ولا يرد، بأن تلك المقومات متى اجتمعت تلاقحت، ومتى تلاقحت ولدت وطنا."[1]

[1] الشيخ الابراهيمي إمام في مدرسة الأئمة، محمد عمارة، ص56

وهو يعترف أن جمعية العلماء من خلال ممارستها السياسة تهدف إلى إيجاد هذه الأمة بفضائلها وأخلاقها، لا أن تمارسها لذاتها أو دون هدف ترجوه منها، والهدف عنده أكبر من شعارات تقال أو جماعات تعقد للتنظير دون عمل جاد وبنّاء، فالسياسة دين، والدين سياسة: ونحن نفتخر بأن هذا اللباب –لباب السياسة-إنما هو حظ جمعية العلماء، له عملت، وفي ميدانه سابقت فسبقت، وفي سبيله لقيت الأذى والكيد والاتهام، وفي معناه اصطدم فهمها بفهم الاستعمار، هي تفهمه دينا وهو يفهمه سياسة، إن جمعية العلماء تعمل لسياسة التربية لأنها الأصل، وبعض ساساتنا –مع الأسف-يعملون لتربية السياسة ولا يعلمون أنها فرع لا يقوم إلا مع أصله، وأي عاقل لا يدرك أن الأصول مقدمة على الفروع.[1] وبالوقوف على آثار الإبراهيمي الذي صنّفه ابنه جامعا فيه ما توفر لديه من أعمال والده، نجده يذكر مشروع والده النهضوي الذي احتوت فصوله جريدة عيون البصائر والتي كانت لسان حاله في جهاده في سبيل الإسلام، والعروبة في الجزائر المحتلة وبما فيها من مقارعة الاستعمار على الصعيدين الديني والسياسي، وبما فيها من مناصرة قضايا المسلمين مشرقا ومغربا، وخاصة قضية فلسطين، ويرجع رغبته في إحداث النهضة الشاملة ما وقف عليه بعد رجوعه من رحلته المشرقية أواخر العشرينات وبداية الثلاثينات وما وجده من تخلف وفقر وجهل لحق بالجزائريين، ونظرا لاحتكاكه بالمصلحين المشارقة وغيرهم أثناء مكوثه هناك جعل فكرة مشروعه النهضوي تكتمل صورتها متأثرا بما قدمه الأولون من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ثم من سار على ركبهم كابن باديس.[2]

وقد أكد ذلك المفكر محمد عمارة عندما تحدث عن نهج البشير الإبراهيمي في الإصلاح السياسي وفهمه لمنطقاته الحقيقية، يقول عن ذلك " إنما هو منهاج مدرسة الإصلاح التي بلورها الأفغاني والأستاذ الإمام.. والذي تميزت به وفيه عن الأحزاب الوطنية التي ركزت على الدولة لا الأمة، وعلى الأمراء والخلفاء بدلا من العلماء، وعلى الحركة السياسية أكثر من الدعوة والتربية السياسية."[3]

[1] الشيخ الابراهيمي إمام في مدرسة الأئمة، محمد عمارة ، ص57

[2] انظر آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج14/1

[3] الشيخ البشير الإبراهيمي إمام في مدرسة الأئمة، محمد عمارة، ص57

2.3 منطلق فكره السياسي "الإسلام :"

لقد سخر البشير الإبراهيمي لسانه وقلمه في الدفاع عن مشروعه النهضوي وتوضيح أهدافه لتوحيد الجهود نحو الدفع به قدما، ومنطلقا فيه من روح الإسلام ولم يدخر جهدا في عرض فكره الإصلاحي في محاضرة ألقاها بالجزائر تحت عنوان التعاون الاجتماعي حدّد فيها معالم مشروعه النهضوي في إطار النسق الإسلامي والذي يقوم على أعمدة أربعة: الدين والعلم والأخلاق والاقتصاد.[1]

لقد أخذ الإبراهيمي على عاتقه تعريف الناس بدينهم وتقريب المفاهيم والتصورات الصحيحة بعيدا عن المغالطات والشبهات، لما للفهم الصحيح من أثر في توجيه العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة. فقد عرّف الإسلام أنه" دين فطري روحي يحمل في طياته نهاية الكمال الإنساني، وأن أصوله بنيت على حكمة خالق الحكمة فنجد في عقائده غذاء العقل وفي عبادته تزكية النفس، وفي أحكامه رعاية المصلحة، وفي آدابه خير المجتمع."[2] وهو بهذا التعريف يرمي إلى صياغة عقيدة سليمة تؤمن أن الكمال الحقيقي هو في التزام هذا الدين، لأن الله بحكمته قد راعى فيه كل ما يجلب الكرامة للإنسانية، ويحقق المصلحة البشرية.

ونظرته للإسلام لم تكن نظرة عابرة جامدة، بل كان في خطاباته يتحدث عن الإسلام بروح مفعمة بحبّه والولاء له، وأن سعادة البشرية كلها هي في اعتناقه والتزام مبادئه لأنه أساس السعادة في الدارين، منكرا على كل من ابتعد عن نهج الله أو ارتضى غيره بديلا، فالأمم شاهدة والتاريخ سجل البطولات الحافلة للمسلمين وقت عزّتهم حيث كانت شريعة الله حاكمة.

نجد البشير الإبراهيمي يولي أهمية كبرى للتعريف بالإسلام وإبراز فضائله لأنه يدرك جيدا مخططات الاستعمار الفرنسي الذي يعمل جاهدا على تنصير الشعب الجزائري أو إبعاده عن روح دينه الإسلام، ليبقي في النفوس رسم الدين لا روحه ومضامينه ومبادئه، لهذا يقف البشير الإبراهيمي من هذه المسألة وقوفا شجاعا في تقريب المفاهيم وحمل الناس على الهدي الإسلامي، محاولة منه إحباط كل مشاريع ضرب الهوية والمرجعية الدينية ليس للجزائريين فقط بل لكل الشعوب العربية التي تعاني في صمت تحت وطأة المستعمر الغاشم.

[1] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج14/1

[2] نفسه، 108/1

وهو في مشروعه النهضوي إن انطلق من الإسلام، فهذا أمر بديهي لأن العزة كلها هي في تحكيم شرع الله في الأرض، فكان إذا خاطب الناس ذكرهم بشريعة الله حين كانت حاكمة في شمال إفريقيا، والسلطة السياسية فيها لا تستغني عن العلماء وأصحاب الاجتهاد يعضدون الحكم بالمشورة والرأي والمراقبة والمساءلة، بحيث يخضع كل فرد في الدولة إلى رقابة ذاتية في تطبيق الشريعة الإسلامية، منبعها العقيدة الصحيحة التي تبرمج في سلوكيات الناس للالتزام طواعية، فكان التاريخ شاهدا على عظمة الدولة المتمسكة بحبل الله والمحكمة لشرعه وبالتالي من الخطورة بمكان الاستغناء عن الإسلام في السلطان.

وإن كانت فرنسا تريد إبعاد الناس عن مرجعيتهم الدينية، فالبشير الابراهيمي سخر جهده في ربط الناس بدينهم بقوة حجته وتمكنه من الخطابة النافذة إلى القلوب قبل العقول، ليجعل بذلك الإيمان سدا منيعا عن مخططات الاستعمار فتزداد قوة المواجهة بقوة الإيمان، و أن حفظ الدين هو حفظ لكرامة الإنسان وعزته وسيادته على العالمين، وأن الالتفاف حول العلماء المعتدلين ذوي الرأي السديد والعلم بالأصول منجاة للناس إذا حلت الخطوب، يقول: " فكان الإسلام في الجزائر بذلك كله هو المرجع في التشريع والتنفيذ وهو المهيمن على العبادات والعادات وهو المسيطر على الروحيات والماديات، والموجه لكل ما يصدر عن الأفراد والجماعات من أعمال، وكان من وراء الجهاز الحكومي طوائف من الفقهاء الشعبيين المتضلعين في فقه الأحكام أصولا وفروعا... وكان هؤلاء العلماء حراس الإسلام وأحكامه،...يقومون بنفوذهم العلمي كل من زاغ عن سبيله من حاكم و محكوم.. وبالجملة فقد كان هذا الطراز من العلماء الشعبيين هو ميزان الاعتدال في الجزائر وهو المسير الحقيقي للدولاب الحكومي والاجتماعي." [1]

[1] نفسه، ج74/5

3.3 القرآن والتجديد الإصلاحي:

من القضايا المهمة في فكر البشير الإبراهيمي الإصلاحية، وقوفه عند أهمية كتاب الله باعتباره مصدرا أصليا من مصادر التشريع الإسلامي، فإلى جانب اهتمامه بالإسلام وترسيخ مبادئه العليا لدى الشعوب، فقد أرجع نهضة الأمة التجديدية متوقفة على فهم القرآن والعمل به والتمسك به، ناهيك عن إدراكه محاربة المستعمر الفرنسي له بغية تنصير الشعب الجزائري، وإبعاده عن هويته ومرجعيته، فقد علم هذا الأخير أن سر قوة المسلمين في تمسكهم بكتاب الله ذي اللسان العربي المبين وأن محاولاته في إبعاد الناس عن القرآن هي إبعادهم عن الدين واللغة معا، يقول عمارة : أن أعداء الأمة الإسلامية وفي طليعتهم الصليبية الفرنسية في الجزائر قد أدركوا خطر القرآن الكريم في البعث والتجديد للهوية الإسلامية بالجزائر، فقالوا بلسان أحد قادتهم أثناء الاحتفال بمئوية احتلالهم للبلاد 1930: " إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرأون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وإن نقتلع العربية من ألسنتهم. [1]

لهذا اتخذ الإبراهيمي مهمة الاعتناء بالقرآن الكريم، الذي جمع الأصول والكليات وأحيا النفوس وغذّى العقول، وحمل معالم الهوية العربية الإسلامية، الهادف إلى تكوين الجيل الصالح والمجتمع الصالح الذي يبني الأمم ويحرر الشعوب وينير العقول، وهو يشير في غير موضع أن الإنسانية اليوم بحاجة ماسة إلى هديه وتعاليمه، لينير ظلام الجفاء والتخلف والفساد والظلم، الذي تحيا فيه الأمة، باعتباره المعين الأساس في عملية التغيير والإصلاح والنهضة، اليوم: "وما أشد شبه الإنسانية اليوم بالإنسانية قبيل نزول القرآن في جفاف العواطف وضراوة الغرائز وتحكم الأهواء التباس السبل وتحكيم القوة وتغول القوة والوثنية المالية، وما أحوج الإنسانية اليوم إلى القرآن وهي في هذا الظلام الحالك من الضلال وقد عجز العقل عن هدايتها وحده كما عجز قديما عن هدايتها لولا تأييد الله له بالأمداد السماوية من الوحي الذي يقوي ضعفه، إذا أدركه الوهن ويصلح خطاه إذا اختل ميزانه". [2]

كما اهتم بتفسير القرآن ووقف عند معالم التجديد والنهضة مدركا أهمية الفهم الدقيق للتصوير القرآني المعجز في كل أوجهه اللغوية والبلاغية والموضوعية والتشريعية،

---

[1] الشيخ البشير الإمام في مدرسة الائمة، محمد عمارة، ص 49

[2] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج249/2

لذا كان الإبراهيمي يشيد بكل مصلح استطاع أن يجدد في خطابه وفي فهمه لمعاني القرآن الكريم من خلال تفسيره، وتبيان أوجه الإعجاز فيه.

وهو إن دعا للإصلاح بحسن فهم القرآن وتدبره ثم العمل بأحكامه، نجده يستنكر حال المسلمين في تعاملهم مع القرآن الذي أصبح كلاما يتلى قد لا يتجاوز الحناجر، فالأمة في نظره التي تقطع صلتها مع القرآن لن تُوفق في حياتها بمختلف مستوياتها، يقول: "أمة تقطعت صلتها بالسلف وضعف تقديرها للقرآن، فأصبح ملهاة آذان ومشغلة لسان، وأصبح حفاظها يقرؤونه للتبرّك أو يتجرون به في المقابر، وعوامها ينزلونه منزلة البصل والكرّاث فيستشفون بحروفه من أمراض سببتها الحرارة أو جلبتها البرودة، وعلماؤها يدرسونه بلغة المصطلحات العرفية، ويتناولونه بأذهان حشيت بالأفكار الطائفية، والتعصبات المذهبية، والمحامل الجدلية، والتوجيهات اللفظية، وبكتب ملئت بالإسرائيليات المصنوعة، والآثار الموضوعة والنظريات، والطلبة هم صرعى هذه الفتن يتلقونه بألسنة جافت البيان العربي، وصرفتها العجمة في منهاج غير منهاج العرب ففسد الذوق واختل التصور."[1]

وإيمانا منه بأن النهضة لا تقوم إلا في رحاب رسالة الإسلام وأحكام القرآن لذا كانت من أعمق الكلمات التي وجهها إلى الشباب يحثهم فيها على التمسك بالدين، والعمل بالقرآن، لإحداث النهضة المرجوة قوله:" أي شباب الإسلام، إن الأوطان تجمع الأبدان، وإن اللغات تجمع الألسنة، وإنما الذي يجمع الأرواح ويؤلفها، ويصل بين نكرات القلوب فيعرفها هو الدين، فلا تلتمسوا الوحدة في الآفاق الضيقة والتمسوها من القرآن تجد الأفق أوسع، والدار أجمع، والعديد أكثر، والقوى أوفر".[2]

وهكذا رأى الإبراهيمي أن جمعية العلماء المسلمين المتمثلة في رئيسها العالم الجليل عبد الحميد بن باديس حاملة لواء القرآن وأن حركة التجديد والإصلاح ستكون ضمن النخبة الفكرية والعلمية المكوّنة للجمعية، وبالتالي نجده يكثف جهوده من خلال الجمعية وصحائفها في إعادة الناس إلى الأخذ من مشارب النبع الصافي القرآن الكريم وضرورة العمل به والوقوف عند أحكامه لصياغة الفرد المؤمن بقضيته والمساهم في إحداث نهضة تربوية وسياسية إصلاحية شاملة.

[1] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج362/1

[2] نفسه، ج15/1

4.3 العلماء في فكر الإبراهيمي :

لقد وقف البشير الإبراهيمي في مشروعه النهضوي على الأسباب التي جعلت المسلمين يتخلفون عن الركب الحضاري، رغم أنهم في قرون خلت كانوا صنّاع حضارة راقية في مختلف المجالات العلمية والثقافية والفكرية والعمرانية، حيث لم يكن يُسمع للغرب صوتا أو يُرفع له علما، فقد كان هذا الأخير في القرون الوسطى يعاني من ظلمات التأخر العلمي والحضاري، وكانت ديار المسلمين بعلومها وفنونها مقصد هؤلاء، فأخذوا عنهم وتتلمذوا على يد كبارهم، ثم ساروا في ركب الحضارة، في حين بقي المسلمون بعدما أنهكتهم الفرقة والشتات وضياع مجدهم بالحملات الصليبية بأوجهها الاستعمارية المختلفة، يبكون ماض تليد ويتغنون بأمجاد أجدادهم والبطولات.

إن مشروع الإبراهيمي الإصلاحي لم يقف عند حدود التنظير في أساليب التربية والتعليم فقط، بل توجه بفكره النيّر إلى البحث في أسباب تأخر المسلمين، وظل يقلّب النظر ويمعن فيه ويشاور بالنقد والتمحيص فوقف على أن التخلف لم يكن ليرتبط بمجال واحد دون الآخر، بل يراه متعدد الأبعاد تتشابك فيه السياسة بالاقتصاد بالتربية بالثقافة بالتعليم، وأنه لا يمكن تعدي مرحلة التخلف دون إعادة النظر في الأسباب، والوقوف عند الحلول الناجعة العميقة عمق العصر الحديث، حيث التكنولوجيا والتطور العلمي، واختلاف الأوضاع باختلاف سياسات الاستعمار في دعم التخلف لدى الشعوب الإسلامية لتتمكن من التوسع في أراضيهم، وإبعادهم عن مشروعهم الإسلامي الذي كان في زمن قريب سيّدا مهاب الجانب بقدر هيبة ملوكه وأمته العريقة.

فأما العصر فقد اختلف، والعلم صار له أربابه من الغرب، والمسلمون في سبات لا يعقلون ولا يطّورون، بل ظلوا متمسكين بما ورثوه دون أن يجددوا في حياتهم ويُعملوا عقلوهم بما تقتضيه سنة الله في الكون، على حد قول الإمام الغزالي رحمه الله: " فقد أدت علوم الكون والطبيعة إلى نقلة مذهلة في حياة الأمم المتقدمة فانتقلت من عصر البخار إلى عصر الذرة والفضاء، وظل العرب والمسلمون متمسكون بأفكار وسياسات عقيمة مخالفة لسنن الحياة."[1]

[1] سرّ تأخر العرب والمسلمين، الغزالي محمد، ص121.

لم يختلف الإبراهيمي والغزالي فيما أصاب العرب والمسلمين من جمود فكري، وتعطيلهم الاجتهاد ومسايرة العصر الزاحف نحو العلوم والتكنولوجيا، فقد تحدث الإبراهيمي طويلا عن الأمم التي استغلت تجارب السابقين وخبِرتْ مكامن الضعف وارتقت في مسالك العلم لتحتل العالم بفكرها وثقافتها وأعلامها، والمسلمون وسط هذا لم يفقهوا متطلبات عصرهم ولم يجاروا العلم في ديارهم، ووصفهم بجمودهم هذا وكأنهم عديمي الإحساس مستنكرا عليهم غفلتهم في زمن لا حياة فيه مع الغفلة: "وها نحن أولاء لا شعور ولا إحساس تمر الحوادث بنا تباعا فلا نعتبر ولا نزدجر، ويسير العالم بما فيه سيره إلى الأمام ونحن في موقف لا نتبيّن فيه موقع أقدامنا. فكأن القطعة التي نحن عليها من هذه الأرض واقفة لا تتحرك أو كأن الأمم كلها ورثت من الأرض التحرّك إلا نحن، إذا فلسنا من هذا العالم أو هذا العالم ليس منا فقْد الإحساس أصبح من أكبر مميزاتنا إلا تلك الآلام التي تحدث عند مرور الحوادث حتى إذا مرّت لم نجد في أنفسنا أثرا ولا عينا." [1]

كما أنه بدراسته واقع العرب والمسلمين وقف عند عدة عوامل جعلتهم لا ينفرون ولا يحركون ساكنا، ومكّنت التخلف من بلدانهم، وهو يرى أن مجاراة المسلمين والعرب للاستعمار والمضي في سياسته التغريبية أحد أهم عوامل تخلفهم، تتساوى فيه الدول المستعمرة والحاصلة على استقلالها الشكلي، فمعظم مسؤولي وحكام هذه الدول لم يتخلصوا من ربقة الاستعمار، وظل الولاء لسياسته القمعية يربط أعناقهم، فصاروا له تبعا في ثقافته وأفكاره وتشريعاته ونظمه، تشبهوا به في كل الميادين، وسلموا له مقاليد الحكم والسياسة بانتهاج نهجه وفرض أحكامه والسير وفق رغباته، وإن لم يكن نظاما استعماريا قائما فهو نظام استعماري من نوع آخر.

والحكام العرب في ذلك بين مد وجزر، فالعدو الأجنبي يستنزف ثرواتهم، ويستولي على نتاجهم الاقتصادي والتجاري والزراعي والشعب بين هذا وذلك لا مصالح ترعى ولا استقرار ولا عدل ولا حقوق تُنال، شغلتهم الصراعات والنزاعات عن معالي الأمور واستهوتهم السلطة بهاريجها فوطّنوا أنفسهم في السلطة بالتدليس والتزوير وقمع الحريات، وظل ولاءهم للمستعمر الذي حقّر من شأنهم وربط التخلف الحضاري بالإسلام والمسلمين.

[1] أُثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج57/1

لم يغفل الإبراهيمي عن دور العلماء في الإصلاح السياسي، فقد أعزهم الإسلام بأن جعلهم ورثة الأنبياء ينيرون للناس طريقهم ويهدون الحكام مسالك رشدهم، بالمشورة والرأي والنصيحة في الخير، وما وجدته في آثاره يذكر أن الإصلاح العلمي من أولى أولويات جمعية العلماء المسلمين إلى جانب الإصلاح الديني، فقد عملت الجمعية وعلى رأسها الإبراهيمي على محاربة البدع والخرافات وربط الناس بدينهم الحق، وقد أعطت لهذا البعد الديني في التكوين اهتمامها بداية لما فيه من مقاصد جليلة سبقت الإشارة إليها، وهو يرى أن الدين والعلم متلازمين في التجديد الحضاري، يقول: "إن تقديم الجمعية للإصلاح الديني على الإصلاح العلمي ضرورة اقتضاها طغيان الفساد في العقائد، حتى أصبح من آثاره اللازمة التزهيد في العلم، وليس معنى هذا أن الجمعية لم تحم حول الإصلاح العلمي، فدروس رجالها وأسلوبهم في دروسهم، كل ذلك أمثلة من الإصلاح العلمي ونهج جديد نهجوه له وطريقة تحتذى فيه."[1]

وقد خصّ العلماء بالذكر وصنّفهم حسب أدوارهم في السلطة والمجتمع، وهو يرمي باللوم على ثلة من العلماء أن كانوا من بين أسباب تخلف المسلمين كونهم لم يؤدوا الأمانة على أكمل وجه، ولم يقدموا للإسلام سوى بعض الدروس الجافة التي لا يواكبون فيها مستجدات عصرهم ولا يجتهدون بما يخدم الإسلام في زمن مختلف عن سابقه. مثله ما أورده أبو الأعلى المودودي حين قال: "أن السواد الأعظم من العلماء كان عاجزا مطبقا عن فهم تقلبات العصر والوضعيات المستجدة يخفقون إخفاقا تاما في معالجة المشاكل والمعضلات التي تواجه المسلمين في هذا العصر، والتي اوجدتها الظروف الجديدة."[2]

كما أنه يرجع سبب تخلف الأمة إلى تخلي العلماء عن أدوارهم في قيادة الأمة إلى جنب الحكام، وقد شهد التاريخ على أنهم لم يضطلعوا بالدور الأساسي في سياسة الدولة، حيث اقتصرت وظائفهم على بعض المهام لا يحركون وراءها ساكنا ولا يقدمون إلاّ المسائل الفقهية البسيطة دون الوقوف على دقائق الأمور ولا مناقشة تفاصيل القضايا المطروحة أمامهم،" إن خروج قيادة الأمة من أيدي العلماء هو أكبر الأسباب فيما وصلت إليه، وهو أمر قديم العهد، ونحن نعلم علم القطع أن علماءنا في القرون الوسطى كانوا وليس بأيديهم

[1] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج144/1

[2] نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي، ص49

من أمر الأمة شيء، وأهم جهات الاتصال بينهم وبين الأمة وهي التدريس والإمامة والفتوى والقضاء، كانت تعطى لهم من الامراء تفضلا وليس استحقاقا."[1]

وهو في تحليله لموقف العلماء من الأمة وعدم اضطلاعهم بدورهم المنوط بهم في الإصلاح يحدثنا عن علماء الخلف الذين مثلوا أكبر شريك في الفساد السياسي بموالاتهم للحكام وعدم دفعهم للفتن والمصائب التي ألمت بالعباد وهو يستنكر منهم هذه المواقف لأنها من أكبر أسباب التخلف، يقول: "نعني بعلماء الخلف هذه العصابة التي نشهد آثارها ونسمع أخبارها، ونحددها تحديدا زمنيا بمبدأ المئة العاشرة للهجرة من يوم بدأت الشعوب الإسلامية في التفكك والانهيار، ولم يظهر لهؤلاء العلماء أثر في دفع البلاء قبل اعضاله، بل كانوا أعوانا له وكانوا بعض أسبابه."[2]

وهذا الصنف من العلماء لم يكونوا في نظر الإبراهيمي علماء الدين أو علماء الدنيا، لأنهم ما فهموا الدين على حقيقته فقد جعلوه نصوصا جامدة لا اجتهاد فيها ولا إعمال عقل، فأغلقوا بذلك باب الفكر وفتحوه على التقليد يتبعون المشايخ بلا فهم أو تبصر، حتى لازمهم الجمود الذي ظل حقبا زمنية طويلة، واستحكمت عقولهم المذاهب فتعصبوا لها، ومنعتهم من مواكبة العصر وتطوير الفكر الإسلامي بما يتماشى مع روح العصر. وأنهم ليسوا علماء دنيا لرضاهم بتقلد المناصب دون أن يكونوا أكفاء لها فرضوا أن يأخذوا أقواتهم بطرق ليست شرعية يتقربون إلى الحكام متزلفين يسترضونهم نظير منصب أو جاه.

وهو إلى جانب ذلك يشخص المجتمع الجزائري ويستنكر على العلماء المتقاعسين عن دورهم الريادي في الإصلاح السياسي، وتركهم المجال واسعا للطرق الصوفية التي والت الاستعمار وفتحت باب البدع والخرافات وأوهمت الناس أن الدين هو مجموعة طقوس أو خزعبلات، فكثر أتباعها وانحرف الناس عن الدين الصحيح بإتيانهم البدع والمنكرات، وخبت نفوسهم عن جهاد المستعمر وإخراجه من البلاد، وأفهموهم أن وجوده والرضا عنه يدخل في باب القدر، والرضا به من تمام الإيمان، " هو من باب القضاء والقدر الذي ينبغي التسليم به والصبر عليه وأن طاعته هي طاعة لولي الأمر."[3] وهذا الوضع تشترك فيك معظم الأقطار العربية والإسلامية التي احتلها الاستعمار وغرس فيها من يُبعد الأمة عن أمر دينها،

[1] آثار الابراهيمي، الابراهيمي، ج151/1

[2] نفسه، ج 114/4

[3] عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مصطفى محمد حميداتو، ص50

حيث خيم الجمود العلمي والفكري، وسادت البدع والخرافات التي استحكمت على الحياة الدينية والفكرية، وشغلت الأمة عن فهم الدين الصحيح والأخذ بأسباب الرقي والتقدم وسيطر الخمول والتقليد والمحاكاة على نحو شامل في كل العلوم الدينية.[1]

وإلى جانب هؤلاء يذكر لنا صنفا آخر أسموا أنفسهم "علماء السنة" وهم أبعد عن السنة كما وصفهم، وقد نعتهم بأنهم لصوص الذين يسترزقون باسم الدين، فقد قال مستنكر موافقتهم على الباطل الذي يجري بين أيديهم يتنافى مع السنة في مراميها وقد تشدد في محاربتهم وعدم التسامح معهم: إن هذه السنة المطهرة تأبى علينا أن نهن مع هؤلاء الأدعياء، أو نلين لغمزاتهم أو نتسامح معهم أو نقرّهم على باطلهم أو نخلي لهم الميدان ليفسدوا من هذه الأمة ما أصلحه الدين، ويفرقوها بكثرة النسب بعد أن وحد الله نسبتها، وينحطوا بها إلى أسفل الرتب بعد أن رفع الله رتبتها."[2]

وهو في تشريحه لوضع علماء الأمة الذين استكانوا وضيعوا حق الله وحقوق العباد، لم يسلموا من مواجهته لهم، واستنكاره استغلاهم الدين أجل الاسترزاق، أو تحريف عقول الناس بالبدع والخرافات أو منعهم من التفكير والاجتهاد بتقليد المشايخ دون تبصر أو إعمال عقل، فالعالم في منظومة الإبراهيمي الإصلاحية هو الذي يضطلع بمهمته الجليلة وفق الضوابط الشرعية، مسهما في توجيه الأمة ويكون نائبا عنها أمام السلطان، لا يثنيه المنصب عن قول الحق، ولا تشغله المهام عن الجهاد في سبيل الله، فقد سادت الأمة الإسلامية في قرونها الأولى بتوجيهات المخلصين من العلماء الذين نصروا الحق ووقفوا ضد الباطل ولم يخشوا في الله لومة لائم، هؤلاء قد أدركوا مهمتهم النبيلة التي استخلفهم الله فيها وجعلهم ورثة الأنبياء. لهذا المقصد الجليل يجتهد الإبراهيمي في مشروعه النهضوي ليجعل من العلماء الدرع الحامي للأمة من الانزلاق، وأن عليهم مسؤولية جسيمة لابد أن يضطلعوا بها قبل أن يسألوا أمام الله عن تضييع الأمانة.

[1] أنظر، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، ص194

[2] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج115/1

5.3 دعوته للوحدة العربية:

إن للحركة القومية العربية جذورا وتاريخا، وقد تضافرت عوامل كثيرة جعلت من رجال الإصلاح ونخبة العلماء المخلصين والمفكرين المنشغلين بوضع الأمة العربية الإسلامية، ينهجون سبيل الدعوة إلى الوحدة، وقد أدركوا أن شتات المسلمين وضياع أمجادهم، إنما كان بسبب تفرقهم وابتعادهم عن دينهم بالدرجة الأولى، ثم كان للعوامل الداخلية التي أصابت كيان الدولة العثمانية دورها في تأزم الوضع على مستوياته المختلفة اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا، فما كان للصادحين بالحق أن يصلحوا في ظل تعسف السلاطين، ولا أن يقودوا حركات إصلاحية بالغة الأهمية إلا قليلا منهم، ومعظم الحركات القومية آنذاك صادرتها الدول الاستعمارية بالولاء لها واحتوائها ضمن مشروعها الاستعماري.

وقد أدرك الإبراهيمي أن الأمة الإسلامية بحاجة في هذا العصر إلى توحيد قواها ضمن الوحدة العربية، فكثّف جهوده مع قلّة من المفكرين المصلحين المجددين، لإعادة بعث الروح العربية الموّحدة للأمة الإسلامية، فكان نضاله واسعا وشملت كتاباته اهتمامه بهذه الوحدة عارضا أسبابها وثمرة إحيائها، وهو في كل ذلك يؤكد أن قضية العرب قضيته بالدرجة الأولى، وأنها تشغل حيّزا كبيرا من تفكيره، قال: "وقومي هم العرب أولا، والمسلمون ثانيا، فهم شغل خواطري، وهم مجال سرائري، وهم مالئو أرجاء نفسي، ومالكو أزمة تفكيري."[1]

لقد نالت أزمة العرب والمسلمين من تفكير الإبراهيمي فراح يبحث عن أسباب تفرقهم، ودوافع انهيار حضارتهم، محللا ومتبصّرا بأوضاعهم المأساوية، موجزا في بعض عباراته تلكم الحال التي لم ترقه ولم يستطع غضّ الطرف عنها، فصارت تعجّ في نفسه قضايا العرب لتُأجج فيه روح التطلع إلى سبل النهضة بهم، موعزا أسباب ذلك إلى تفرقهم وتخاذلهم وصبّ اهتمامهم في سفاسف الأمور اتي لا تعلي لهم مكانة ولا ترفع لهم شأنا، " وأفكر في علّة هذا البلاء النازل بهم، وفي هذا التفرق المبيد لهم، فأجدها آتية من كبرائهم وملوكهم، ومن المعوّقين منهم الذين أشربوا في قلوبهم الذّل، فرئموا الضيم والمهانة، واستحبوا الحياة الدنيا فرضوا بسفاسفها، ونزل الشرف من نفوسهم بدار غريبة فلم يقم،

[1] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج482/3

ونزل الهوان منها بدار إقامة فلم يرم، وأصبحوا يتوهمون كل حركة من إسرائيل أشباح من عزرائيل."[1]

وقد حصر جملة من الأسباب التي أسهمت في عدم اهتمام العرب بوحدتهم، فقد شغلتهم الدنيا من أموال ومكتسبات ومناصب راقية، وموالاة للعدو الأجنبي على حساب أخوتهم في الدين والعروبة، ونظرا لإدراكه خطورة بقاء العرب متفرقين ندب نفسه للتذكير بالوحدة وبإيجاد كل المبررات الدافعة إلى إصلاح وضع الأمة، وتبيان خطورة البقاء في سفاسف الأمور دون صدّها، أو الركون إلى التخاذل والمذّلة، أو البقاء تحت رحمة أحزاب متنافرة، لا همّ لها إلا الاستحواذ على الطاقات وشحذها لخدمة مصالحها الخاصة، يعود ليذكّرهم بضرورة مراجعة سياساتهم التي لم تجلب لهم إلا الفساد والتراجع عن الركب الحضاري، فكل قوتهم هي في وحدتهم إذ يقول: "إن عدونا واحد فلنلقه في ميدان واحد برأي واحد وصف واحد، ولو فعلنا وأخلصنا لسعت إلينا الحرية ركضا، ولكن عدونا أعلم بهذه النقائص، فينا منا فهو نائم ملء عينيه، مادام يرانا على هذه الحالة. أزعجوه وأقضّوا مضاجعه، باتحاد لا يتزعزع وعزائم لا تتزلزل، وأخلاق يذعن لها الجبابرة ويومئذ تجدون الاستعمار وقوّته وأساليبه وتخيلاتكم فيه كلها باطلا في باطل وتجدون منها جميعا ما يجدع الخائف من الغول الذي لا حقيقة له."[2]

إن المتمعن في قول الإبراهيمي يجده قد وضع يده على جرح الأمة فعلا، وكأنه يتحدث بلسان واقعنا المرير اليوم، فبعد نظره وقوة شكيمته وحسن فهمه ودقّ تحليله، يجعلنا نتأكد أنه فعلا صانع نهضة وصاحب فكر إصلاحي دون منازع، فحال الأمة كما جسّده لم يتغير، فرقة وموالاة للعدو وخوف من شبح الأجنبي المستعمر، لازال يطبق عليها، وها هو يعطي بعضا من أساليب اليقظة الفكرية والتي أساسها اليد الواحدة والرأي الواحد بكل مخلصين لله أعمالهم، دون تراجع أو تخاذل فكل القوة هي في الوحدة ثم الأخلاق العالية لا ظلم ولا فساد ولا خيانة ولا ابتعاد عن أصول الأخلاق وفضائل الأعمال، ثم العزيمة القوية في منازلته، لأنه حينها سيبدو صغيرا أمام أعينكم. وحتما سيكون النصر حليف الأمة الواحدة.

[1] نفسه، ج 482/3

[2] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج303/4

كما أيقن أن للوحدة آثار أخرى على الشعوب العربية فقد تعيد في نفوسهم العزة والأنفة في ظل الدين الإسلامي والعروبة، بعدما سيطرت عليهم مشاعرهم المحبطة إزاء انتمائهم، إذ أصبح الشعور بالنقص والتخلف لصيقان بالعرب، لانشغالهم عن معالي الأمور بسفاسفها في الوقت الذي تضرب القوة الصناعية أرجاء أوروبا وغيرها من الأمم وتزدهر العلوم وتتطور الأوضاع الاجتماعية وصارت دولهم قبلة كل التواقين للتحضر والعيش الآمن، هنا ظهرت النفوس الضعيفة من أبناء العرب تتطلع أعينهم إلى لغات هذه الدول وإلى ثقافاتها، وتشبهوا بهم في المأكل والملبس والفكر وطالبوا بنظمهم وشرائعهم، وجعلوا من العربية منقصة لهم يتوارون خلف شعارات الغرب حتى تتعالى نفوسهم ويشعرون بقوتهم في انتسابهم للفكر الغربي.

وجملة ما يفهم من ثورته هذه وسعيه للوحدة العربية والاهتمام بالقضايا الواحدة، أن يبني الفكر من جديد برؤية إصلاحية عمقها بعمق الأفكار التي أوردها، فالعدو لا يفهم لغة المذلة بالكلمة الثائرة بل يفهم لغة المقاومة والسلاح والثورة ضده بعزيمة واحدة وفي صف واحد، وعلى العرب جميعا من منظور الإبراهيمي عليهم أن يستبدلوا تلك النظرة الضيقة لعلاقاتهم بأمتهم بنظرة أوسع وأرحب لهم إذ يجتمعون تحت راية الدين واللغة والوطنية، ثم عليهم أن يعرفوا نقاط ضعف عدوهم المستعمر ويحاربونه من خلالها لأنهم سيكونون في جبهة قوية مانعة، وأن حريتم وتخلصهم من تبعية المستعمر في اللغة والثقافة والفكر تكون بجهد كبير متواصل دؤوب، لا تغذيه إلا الدماء الطاهرة وهي ثورة لأجل الكرامة والوحدة. هذه قبسات من رسالته للأمة العربية.

وفي مجال مناصرته للقضايا العادلة فقد أولى أهمية كبرى لقضية فلسطين، وخصها بمقالات عديدة، يذكّر بضرورة توحيد الجهود العربية لمساندتها في استرجاع سيادتها، وفي كشف كل المؤامرات التي حيكت ضدها، لا سيما منها ما تعلق بمؤامرة الغرب مع الكيان الصهيوني في نهب ثرواتها مستنكرا عن العرب والأمة جمعاء الوقوف صامتة أمام جرائم بني صهيون، وتفريطفهم في أقدس مقدسات الدين.

فالبشير الإبراهيمي أحد أبرز المفكرين الذين عاشوا للقضية الفلسطينية وجاهدوا فيها بالقلم والعظة والعمل، وكانت حروفه مدوية تعبر عن عمق الصلة بينهما، وأنها لم تغب يوما عن خاطره أو فكره، فيحاول إيقاظ الضمائر النائمة، ويحمّس القول المتأججة حبا لها

لنصرتها، وظل هو على عهده مبدعا في الخطابة لأجلها مسخرا قلمه صداحا بحقّها، فتظهر عباراته ممزوجة بين الحب والشفقة تذكيها العزيمة القوية على الانتصار لها، وهو بين الحروف يوصل رسالته إلى كل العالم الإسلامي أنها قضيته الخاصة، قائلا:" يا فلسطين ! إن في قلب كل مسلم جزائري من قضيتك جروحا دامية، وفي جفن كل مسلم جزائري محنتك عبرات هامية، وعلى لسان كل مسلم جزائري في حقك كلمة مترددة هي فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير قبل أن تكون قطعة من وطني العربي الصغير وفي عنق كل مسلم جزائري لك يا فلسطين حق واجب الأداء وذمام متأكد الرعاية فإن فرط في جانبك أو أضاع بعض حقك فما الذنب ذنبه، وإنما هو ذنب الاستعمار الذي يحول بين المرء وأخيه، والمسلم وقبلته". [1]

والإبراهيمي يرى أن فلسطين أمانة في عنق المسلمين، ووديعة استودعها نبينا محمد ﷺ وجب أداؤها، وحفظها وحسن رعايتها، وهو في خطابه لأجل فلسطين تبدو مشاعره قوية صارخة، مدويا صوته وهو يتوجه إلى العرب والمسلمين بالنداء لحفظها، قائلا: "أيها العرب أيها المسلمون، إن فلسطين وديعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمّتنا، وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود منا ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون." [2] وكأنه يجدد في الأمة طرق تفكيرها فيخرجها من بوتقة الانغلاق عن القضايا العربية والإسلامية إلى فسحة الوحدة العربية الإسلامية فالقضية قضية كل العرب وكل المسلمين، شاحذا هممهم ومصلحا لحالهم المتعثرة، غارسا فيهم الغيرة على الدين والوطن الواحد.

وهذه الرسالة التي حاول الإبراهيمي أن يوصلها إلى الشعوب، وهذا النداء الصارخ إنما هو وليد فكر إصلاحي قدمه الإبراهيمي في جملة أفكاره الإصلاحية التجديدية للنهوض بالأمة العربية والإسلامية، وخطابه هذا لم يكن خطابا تزينه العبارات وتنمقه بعض الصور البيانية بل تعداه إلى المساهمة العملية، دعوة منه إلى الإنفاق في سبيل القضية، فالدعم المالي نوع من أنواع الجهاد في فكر الإبراهيمي يقول عن نفسه: "أمّا أنا كاتب هذه السطور فو الذي روحي بيده لو كنت أملك ما يملكه العمودي من سخل، أو ما يملكه البسكريّ من نخل، أو ما يملكه الفلاح من أرض، أو ما يملكه الحضري من دور ورباع، أو ما يملكه الكانز من روق وورق، لخرجت كل ذلك في سبيل عروبة فلسطين، ثم لا تجدني مع ذلك منانا ولا

[1] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج 435/3

[2] نفسه، ج445/3

كنوزا، ولكنني أملك من هذه الدنيا مكتبة متواضعة هي كل ما يرثه الوارث عني، وإنني أضعها خالصا مخلصا بكتبها وخزائنها تحت تصرف اللجنة التي تشكّل لإمداد فلسطين، ولا أستثني منها إلاّ نسخة من المصحف للتلاوة ونسخة لكل من الصحيحين للدراسة." [1]

6.3 جهود الإبراهيمي في المؤتمر الإسلامي الجزائري: 1936

ظهرت حركة المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936، فكانت أول واجهة سياسية شاركت فيها جمعية العلماء المسلمين إلى جانب الحركات ذات الاتجاهات السياسية على إثر تخلف وعود المستعمر الفرنسي بشأن الإصلاحات الجوهرية التي ظلّ يُمنّي بها الشعب الجزائري، وبعدما تبين عدم وفائه تشكل هذا المؤتمر ليكون لسان حال كافة التشكيلات السياسية الوطنية أمام المستعمر لرفع مطالبهم والدفاع عن حقوقهم.

من الباحثين من يرجع أصل تشكيله إلى جمعية العلماء المسلمين الممثلة في رئيسها الإمام عبد الحميد بن باديس، وقد صرّحت جريدة البصائر بذلك في العدد الأربعين منها، حيث ورد: "أعلن الشيخ عبد الحميد بن باديس .. فكرة الدعوة إلى تأسيس مؤتمر إسلامي عام يمثل الشعب الجزائري أمام الحكومة الفرنسية والرأي العام الفرنسي، وابن باديس يعلم ما وراء هذه الدعوة ويعلم ما سيكون لها من تأثير في الشعب الجزائري،.. ومن يومئذ أخذت الفكرة تختمر في العقول وجاء دور التنفيذ والعمل وسنحت الفرصة كل السنوح على ما شمّه الشعب الجزائري من نسيم الحرية في العمل والاجتماع في عهد حكومة الجبهة الشعبية." [2]

وقد انعقد المؤتمر الأول في الجزائر العاصمة يوم 7جوان 1936 تحت رئاسة الدكتور بن جلول بمشاركة جميع الهيئات ماعدا جمعية نجم شمال إفريقيا، وقد جمع المؤتمر لذلك الكثير من المتناقضات لا في التخطيط فقط ولكن في الأهداف الاستراتيجية أيضا فالذي كان يهم النواب النخبة هو مشروع "فيوليت" والاندماج، وانحصرت مطالب العلماء في تحرير الدين الإسلامي من سيطرة الدولة الإسلامية، وتعميم التعليم العربي الحر، أما الشيوعيون والاشتراكيون فكان همهم الوحيد جمع قوى الشعب الجزائري وراء الجبهة الشعبية التي كانوا مشتركين فيها لصياغة قائمة موحدة لمطالب المؤتمر أمرا عسيرا. [3]

---

[1] نفسه، ج459/3

[2] البصائر، جمعية العلماء المسلمين، 40 /312

[3] أنظر، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، ج153/4

والقول بأن جمعية العلماء دعت إلى تشكيل هذا المؤتمر ففيه دلالة واضحة على انضمام علمائها ومفكريها إلى هذا المؤتمر عاملين بجدّ وعزم على مواجهة المستعمر بمطالب الشعب الجزائري، والإبراهيمي أحد أبرز هؤلاء، فقد كان أول مقال نشرته البصائر بخصوص المؤتمر كان للإبراهيمي مصورا فيه إقبال وفود المشاركين في المؤتمر من كل أقطار البلاد، بتنوعهم واختلاف أطيافهم وتوجهاتهم، فالذي جمعهم هو الوطن، قال: "لم يمض على الجزائر الإسلامية في تاريخ ارتباطها السياسي بفرنسا يوم أغرّ محجّل تمثلت فيه الأمة روحا وجسما وتلاشت فيه الفوارق الاعتبارية في هذا اليوم،.. فقد وصل عدد الوفود ما يزيد عن سبعة آلاف شخص." [1] وانعقدت جلساته في نادي الترقي حيث رفعت مطالبهم في وثيقة توافقية تمثل عموم الشعب الجزائري، ومن أبرز مطالبها اعتبار اللغة العربية لغة رسمية مثلها مثل الفرنسية وصحافتها عربية أيضا، استرجاع المساجد بيد المسلمين، على أن تخصص لها ميزانية خاصة، ومنها أيضا تأسيس كلية للدين واللغة العربية، وتنظيم القضاء الإسلامي ووضع مجلة أحكام شرعية تحت إشراف هيئة متخصصة ومطالب أخرى سياسية فرعية. [2]

وبعد تتبع جمعية العلماء المسلمين لتطورات الوضع وأهم نشاطات المؤتمر، قررت إرسال وفد إلى فرنسا ليقدم مطالب الشعب الجزائري وكان من بينهم الشيخ البشير الإبراهيمي وابن باديس والعقبي ممثلين عن جمعية العلماء المسلمين، واعتبر المؤتمر عنوانا لاتحاد الأمة، وهي بادرة غير مسبوقة كان للإبراهيمي دورا كبيرا في هذه الوحدة وظلّ قلمه يكتب متتبعا الوضع حتى اعتبر المؤتمر الإسلامي: أكبر حدث تمخضت عنه حركة الإصلاح في القطر الجزائري وأعظم نتيجة عملية لجهود رجال العلم والعمل من الطرفين..وفيه توحدت الجهود واجتمعت الكلمة من كل عناصر الأمة وجميع أحزابها على مطالب الأمة الإسلامية الجزائرية. [3] إلاّ أنه لم يعرف يوما لمستعمر وعد أو وفاء فلم يستمر عطاء هذه الحركة إزاء الضغوطات الفرنسية التي تشددت في التعامل مع أقطاب وأعلام هذا المؤتمر ليصطدم المؤتمر بتصلب الإدارة الفرنسية ورفضها لتحقيق مطالب الأمة الجزائرية التي تجسدت في المؤتمر بل لم تكتف بهذا فقط بل أقامت المكايد كعادتها لعرقلة مسيرته فكان الاغتيال والاعتقال والمصادرة والإثارة. [4]

[1] البصائر، جمعية العلماء المسلمين، 23 /186

[2] انظر، البصائر، جمعية العلماء المسلمين، 24 / 194.

[3] نفسه، 73 / 181.

[4] انظر، عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية 1889-1940، بن رحال الزبير، ص70

7.3 دور الإبراهيمي في دعم ثورة التحرير:

إن الحديث عن الإبراهيمي في قضيته الأم القضية الجزائرية نجده لم يدخّر وسعا في مناصرتها والجهاد في سبيلها، بل حمل عبء الإصلاح التربوي والتعليمي والسياسي على عتاقه قبل أن ينضم إلى جمعية العلماء المسلمين بزمن كبير على إثر موجات الإصلاح التي غزت العالم الإسلامي، وقد رأينا سالفا كيف تأثر بأقطاب الإصلاح في المشرق، خلال رحلاته الأولى، حيث عدّ الإمام الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والكواكبي وغيرهم قدوة له للنهوض بالأمة الإسلامية، فلم يكن نشاطه خاصا بالجزائر وحدها بل امتد بصره إلى العالم الإسلامي برمّته، وصاغ من عصارة فكره الإصلاحي برامج تربوية وتعليمية كانت زاده الأول في مواجهة الاستعمار، ثم بدا نشاطه السياسي منظرا لأصوله، له فيه نظرات تجديدية، يحتكم فيها إلى مبادئ الدين الإسلامي مستمدا من الواقع خصوصياته في بلورة هذا الفكر محركا للاجتهاد وإعمالا للعقل.

فقه الإبراهيمي خطط المستعمر في محاولاته القضاء على الهوية الجزائرية والمرجعية الدينية للشعب الجزائري، لذلك نجده اتجه إلى الوعظ والإرشاد والتوجيه بما يخدم هذه المبادئ وكانت مقالاته مفعمة بالروح الإيمانية وحب الوطن، وكانت محاضراته معينا له على صياغة الشباب ومختلف الفئات على المبادئ الكبرى من دين ولغة ووطنية وحارب التنصير والتجنيس ودعا العلماء المخلصين إلى المشاركة في الفعل الحضاري بالتخلي عن الجمود والتبعية والطرق الصوفية المنحرفة عن النهج الأصيل ليضطلعوا بمهمة الوعي وصناعة الجيل الثائر ضد الاستعمار.

وهو إلى جانب ذلك يبني المدارس ويشيد المساجد ويدعو إلى جامعة إسلامية، ويواجه المستعمر بفرض اللغة العربية واحترام الدين الإسلامي، وبذل الوسع في المطالبة بحقوق الشعب المنهوبة، كثيرة مواقفه التي خلّدت آثاره وهو الرجل العالم الذي لم يقف عند حدود دولته فقط بل دعا إلى الوحدة الإسلامية العربية وناصر القضايا القومية وأخذ من السياسة لبّها ومارسها وفق ما يحقق المصالح العامة.

وهو في نضاله لم يقف مكتوف الأيدي أمام ضغوطات المستعمر فمثلما ساند الثورة داخل الوطن نجده يسعى جاهدا للحصول على الدعم والتأييد خارج وطنه فكانت رحلاته إلى مصر والعراق والحجاز وسوريا والأردن وغيرها من بلدان المشرق يحشد الجموع للوقوف إلى جانب القضية الجزائرية." وراح الإمام الإبراهيمي يتنقل بين البلدان العربية ليحث مسؤوليها على تقديم مساعدات للجهاد الجزائري، ويدعوهم للضغط على فرنسا، ويطالبهم بمقاطعتها اقتصاديا،[1] ومن هذا القبيل ما شهد به أحد السؤولين العرب آنذاك حيث قال: "كان الإبراهيمي يلتقي بصاحب العرش وولي العهد، كما كان يلتقي برئيس الوزراء ووزير الخارجية حاثا إياهم على نصرة الجزائر سياسيا وعسكريا وماديا[2]، "وبالفعل فقد أحرز نجاحا في استقطاب الرأي العربي للثورة وجلب الدعم لها"[3]

وقد استطاع بحنكته وقدرته على الحوار والتفاوض أن يسعى بين هذه الدول واضعا نصب عينه أهدافا أساسية أجملها في: "بذل المساعي لدى الحكومات العربية بقبول عدد من الطلاب الجزائريين الذين تخرجوا من معاهد العلماء للدراسة في مختلف المعاهد والكليات وخاصة العسكرية منها، وطلب المعونة من الحكومات العربية لجمعية العلماء حتى تنهض بعبء رسالتها التعليمية.وكذا الدعاية لقضية الجزائر في المشرق العربي"[4]

"إن الإمام الإبراهيمي عندما يخاطب المسؤولين ويستنصرهم، ويستعديهم الاستعمار، لا يفعل ذلك انطلاقا من اعتبارات سياسية أو مصلحية فقط، ولكنه يستند على مبادئ الإسلام وأصول الدين، التي تفرض عداوة الظالم، وتوجب مقاومته بكل أنواع القوى، وتحرم موالاة ذلك الظالم، لأن تلك الموالاة في حقيقتها خروج عن الإسلام ولا يشفع لأولئك الموالين أعذار يعتذرون بها، أو معاذير يلقونها." [5]

وقد عدّد الباحث، فهد مسلم زغير في مقال له، جهود الإبراهيمي في رحلته المشرقية طالبا مساندة القضية الجزائرية، واقتصر على ذكر بعض بلدان المشرق ودعمهم المادي والمعنوي، مبرزا أهم إنجازاته التي أظهرت كفاءته السياسية.[6]

[1] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج24/5

[2] الشيخ البشير الابراهيمي كما عرفته، محمد فاضل الجمالي، ص124

[3] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، 24/5

[4] المنار جريدة، الجزائر السنة 3، العدد 40، 10 أبريل 1953، ص2

[5] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج26/5

[6] أنظر، محمد البشير الإبراهيمي ودوره الفكري والسياسي 1889-1965، فهد مسلم زغير

فكانت مصر وجهة مثمرة أثناء رحلته طلبا للدعم، حيث افتك منهم مناصرة القضية الجزائرية "عن طريق فتح المكاتب وتأسيس اللجان، ومن أهمها مكتب المغرب العربي الذي باشر نشاطه من القاهرة"[1].

كما كان أول صوت للثورة سمع من القاهرة، حيث "وضعت مصر إذاعة صوت العرب في خدمة الثوار الجزائريين من خلال إذاعة البيانات والنشرات المؤيدة للثورة الجزائرية" [2]، ومن أجل توحيد جهود الجزائريين المقيمين بالقاهرة، بادر محمد البشير الإبراهيمي الى تأسيس جبهة تحرير الجزائر في 12 اذار 1955، وقد بارك الرئيس جمال عبد الناصر ذلك ودعم الكفاح المسلح في شمال إفريقيا.[3]

وقد شهد التاريخ الجزائري للرئيس المصري جمال عبد الناصر وقوفه إلى جانب الثورة الممثلة بالشيخ البشير الإبراهيمي، وقد ذكرت جريدة البصائر فضل مصر ورئيسها على دعم ثورة التحرير، وعلى المساعدات المادية وحتى العسكرية التي وعد بإمداد الجزائريين بها[4] ، كما نجح الإبراهيمي في تحقيق أهداف تعليمية للبعثات الطلابية في مصر، ذكرت جريدة البصائر في عددها 287 بتاريخ الأول من تشرين الأول 1954 مثنية على جهود مبعوثها الإبراهيمي "أن مساعي وجهود الشيخين الإبراهيمي والورتلاني قد أسفرت عن قبول مختلف البلاد العربية لبعثة جديدة من أبناء الجزائر...". [5]

ولم يتخلف العراق عن مصر في دعمه للثورة الجزائرية واستجابته لدعوة الإبراهيمي تنديدا بمجازر الاستعمار حيث شهدت ساحات العراق " المظاهرات والتجمعات الجماهيرية المنددة بالاستعمار الفرنسي، وشكلت عدة لجان للمساندة المادية بما فيها جمع التبرعات المالية والطبية والغذائية".[6]

---

[1] ردود الفعل الدولية على أول نوفمبر داخلياً وخارجياً، مولد قاسم نايت بلقاسم، ص8.

[2] جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، محمد صبري، ص141.

[3] عبد الناصر وثورة الجزائر، فتحي الديب، ص 73-75.

[4] انظر جريدة البصائر في عددها 290 الصادر في 20 كانون الأول 1954

[5] انظر، البشير الابراهيمي ودوره الفكري والسياسي، زغيبر، ص480

[6] السياسة العربية والمواقف الدولية تجاه الثورة الجزائرية 1954-1962، إسماعيل دبش، ص90

زار محمد البشير الإبراهيمي العراق في 1954 وقد لاقى استقبالا شعبويا كبيرا من طرف العراقيين بوصفه من الشخصيات الإسلامية المرموقة، مقدّرين جهوده الإصلاحية المبذولة في سبيل تحرير بلده من براثن المستعمر، " والتقى رئيس الوزراء فاضل الجمالي واستغرق اللقاء وقتاً طويلاً تناولا خلاله دور العراق في دعم الثورة الجزائرية، وتلبية لرغبة الإبراهيمي لم يستثنِ الجمالي أي اجتماع، أو أي دورة في المحافل الدولية، إلا وكانت قضية الجزائر أساس اجتماعاته"[1]، وقد كان للعراق الفضل بالتعريف بالقضية الجزائرية في المحافل الدولية والدفاع عن استقلالها وعن شخصيتها المستقلة، وكان الدعم وافرا منه، وكان للإبراهيمي الفضل الكبير في افتكاك هذا الدعم بما يحمله من حب لوطنه وغيرة على دينه.

لم يتوقف الإبراهيمي عن السعي لأجل وطنه، فاتخذ من المملكة العربية السعودية وجهة له، وقد لاقى من الترحيب ما لم يكن يتوقع، وكانت نتيجة ذلك أن أقدمت السعودية على دعمها من عدة أوجه.

كما سخرت السلطات السعودية "مصنع السلاح في بلدة الخرج لتمويل الجزائر بالسلاح، كما قدمت مبالغ ضخمة لشراء أنواع أخرى من الأسلحة.[2]

وقد بلغ اندفاع الإبراهيمي في الدعوة إلى مساندة وطنه، والعمل على دعم جهاده إلى درجة قد يعتبرها بعض الناس تجاوزا للحدود، وعدم مراعاة اللياقات،" حيث بعث برقية إلى الملك سعود يقترح عليه تكليف الأستاذين أحمد الشقيري وعبد الرحمان عزام أو أحدهما بالاستعداد لمتابعة قضايا الجزائر والدفاع عنها."[3]

أما سوريا فكان كسابقاتها داعمة واستطاعت أن توصل صوت الجزائريين إلى هيئة الأمم المتحدة حيث "صرح أحمد الشقيري رئيس الوفد السوري في هيئة الأمم المتحدة" أن الجزائريين لهم الحق في حكم أنفسهم بأنفسهم، وفي عصر هيئة الأمم المتحدة هذا الذي نحن فيه، فمن غير المعقول بتاتاً أن تدعي فرنسا أن الجزائر فرنسية"[4] كما ساهمت أيضا في المجال التعليمي وفق الأهداف التي سطرها الإبراهيمي في رحلته الداعمة للقضية الجزائرية.

---

[1] البشير الابراهيمي ودوره الفكري والسياسي، فهد الزغير، ص482

[2] الشيخ البشير الإبراهيمي عالم من أعلام العرب في القرن العشرين، عمر الحكيم، ص155

[3] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج25/5

[4] ردود الفعل الدولية على أول نوفمبر داخلياً وخارجياً، مولود قاسم بلقاسم، ص198-200

وقد سجل الشعراء بعض نشاط الإمام الإبراهيمي الذي أقعدته الأمراض، و وبلوغ السن عن السعي الحثيث لحشد التأييد الشعبي والرسمي لقضية وطنه، ومن ذلك ما جاء في "ملحمة العروبة" للشاعر العراقي مصطفى نعمان البدري:

فإذا البشير يجوب آفاق البلاد بقلب كابر
ويحاضر العربان في تاريخ أمجاد غوابر
ويحشّد الرأي العميم لنصرة البلد المصابر
فيمد فيهم نخوة الشجعان تثأر للعوائر[1].

كما استغل الإبراهيمي الملتقيات والندوات والمؤتمرات في الصدح بالحق والتعريف بالقضية الجزائرية، ومن أمثال تلك المؤتمرات، المؤتمر الثالث للأدباء العرب، ومؤتمر التعريب بالرباط، وندوة الأصفياء، "وقد كان الإمام في تلك المؤتمرات والندوات واللقاءات أحرص على استقلال الأمة العربية أدبيا وفكريا ولغويا، من حرصه على الجوانب السياسية والاقتصادية."[2]

4. خاتمة:

وهكذا كان البشير الإبراهيمي أحد العلماء الربانيين الذين سخروا علمهم وجهودهم في مقاومة استبداد السلطات ومناهضة الاستعمار، عاملا على توحيد الأمة العربية والإسلامية فكان خير سفير لذلك من خلال ندواته وملتقيات أجراها وترأس مجالسها، ومن خلال دخوله على الحكام قصد الوقوف ضد الجور والظلم الذي لحق بلاده وبلاد المسلمين، ونظرا لمؤهلاته الفكرية والعلمية والسياسية، فقد ساهم في إرساء قواعد فكر سياسي منطلقه الشرع، وغايته الوصول بالأمة إلى وحدتها وحماية مصالحها، مستنهضا همم العلماء في عصره للقيام بدورهم القيادي المنوط بهم كورثة أنبياء، في زمن طغى عليه الخنوع والجمود الفقهي والتواطؤ مع السلطان. وكنتائج البحث يحق لنا أن نقول أن الشيخ الإبراهيمي:

[1] آثار البشير الابراهيمي، الابراهيمي، ج5/25

[2] نفسه، ج 5/26

- يعتبر امتدادا لعلماء الإصلاح والتغيير المعاصرين، من أمثال محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، وغيرهم ممن ساهموا في إرساء قواعد الفكر السياسي الإسلامي، وحلقة وصل بينهم وبين لاحقيهم ممن تأثروا بفكرهم وساروا على خطاهم في النهوض بالأمة عاملين على استرجاع مكانتها بالحفاظ على مرجعيتها الدينية، والنضال من أجل تحقيق مصالحها وفق المبادئ الكبرى للدين الإسلامي لا تغيير ولا تبديل.

هدف الإبراهيمي من الخوض في السياسة هو إيجاد الأمة بمقوماتها، وكذا بفضائلها وأخلاقها بعيدا عن ممارسة السياسة لذاتها دون أهداف ترتجى من الخوض فيها.

اتخذ الإبراهيمي من قلمه سلاحا ينافح به عن قضايا الأمة بداية بقضيته الجزائرية، حيث احتوت فصول جريدة عيون البصائر ملامح مشروعه النهضوي والتي كانت لسان حاله في جهاده في سبيل الإسلام، والعروبة في الجزائر المحتلة وبما فيها من مقارعة الاستعمار على الصعيدين الديني والسياسي، وبما فيها من مناصرة قضايا المسلمين مشرقا ومغربا، وخاصة قضية فلسطين.

نجد البشير الإبراهيمي يولي أهمية كبرى للتعريف بالإسلام وإبراز فضائله وتصحيح التصورات والمفاهيم الخاطئة المتعلقة بالعقيدة لأنه يدرك جيدا مخططات الاستعمار الفرنسي الذي يعمل جاهدا على تنصير الشعب الجزائري أو إبعاده عن روح دينه الإسلام .

لم يقف البشير الإبراهيمي في مشروعه الإصلاحي عند حدود التنظير في أساليب التربية والتعليم فقط، بل توجه بفكره النيّر إلى البحث في أسباب تأخر المسلمين، وظل يقلّب النظر ويمعن فيه ويشاور بالنقد والتمحيص فوقف على أن التخلف لم يكن ليرتبط بمجال واحد دون الآخر، بل يراه متعدد الأبعاد تتشابك فيه السياسة بالاقتصاد بالتربية بالثقافة بالتعليم.

لم يغفل الإبراهيمي عن دور العلماء في الإصلاح السياسي، فقد أعزهم الإسلام بأن جعلهم ورثة الأنبياء ينيرون للناس طريقهم ويهدون الحكام مسالك رشدهم، بالمشورة والرأي والنصيحة في الخير، كما يرى أن الإصلاح العلمي من أولى أولويات جمعية العلماء المسلمين إلى جانب الإصلاح الديني. كما أنه يرجع سبب تخلف الأمة إلى تخلي العلماء عن أدوارهم في قيادة الأمة إلى جنب الحكام.

كما أدرك الإبراهيمي أن الأمة الإسلامية بحاجة في هذا العصر إلى توحيد قواها ضمن الوحدة العربية، فكثّف جهوده مع قلّة من المفكرين المصلحين المجددين، لإعادة بعث الروح العربية الموّحدة للأمة الإسلامية. وفي مجال مناصرته للقضايا العادلة فقد أولى أهمية كبرى لقضية فلسطين.

فقه الإبراهيمي خطط المستعمر في محاولاته القضاء على الهوية الجزائرية والمرجعية الدينية للشعب الجزائري، لذلك نجده اتجه إلى الوعظ والإرشاد والتوجيه بما يخدم هذه المبادئ وكانت مقالاته مفعمة بالروح الإيمانية وحب الوطن، وكانت محاضراته معينا له على صياغة الشباب ومختلف الفئات على المبادئ الكبرى من دين ولغة ووطنية وحارب التنصير والتجنيس ودعا العلماء المخلصين إلى المشاركة في الفعل الحضاري بالتخلي عن الجمود والتبعية والطرق الصوفية المنحرفة عن النهج الأصيل ليضطلعوا بمهمة الوعي وصناعة الجيل الثائر ضد الاستعمار.

توصيات: لازال التراث الفكري والعلمي لعلماء الجزائر يحتاج إلى إعادة بعثه من جديد، فكثيرة هي مجهودات العلماء الذين حملوا على عاتقهم همّ الأمة فصاغوا مشاريعهم النهضوية على أسس متينة أهمها الحفاظ على المرجعية الدينية والهوية الوطنية يبتغون من ورائها صياغة مجتمعات أصيلة تقف في وجه التغريب والتدمير. قد نعلم عن بعض هؤلاء ونجهل الكثير عن غيرهم لذلك لابد على طلبة العلم والباحثين الخوض في مثل هذه المواضيع للتذكير بأمجاد علمائنا والوقوف على برامجهم ومشاريعهم التغييرية للاستفادة منها في إعادة صياغة توجهات المجتمعات والأمة قاطبة التي تاهت بين التغريب والتشويه وعملاء التدمير.

.قائمة المصادروالمراجع:

آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، جمع أحمد طالب الابراهيمي، الطبعة الأولى ،دار الغرب الإسلامي، بيروت ،1997
أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996
الابراهيمي العالم المصلح، روجي قارودي، مجلة الشيخ الإبراهيمي بأقلام معاصرة، عدد87، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 1985
البصائر، جمعية العلماء المسلمين، السنة الأولى، العدد 40، 1936/10/23
جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، محمد صبري، ترجمة كميل قيصر داغر، ط1، دار الكلمة للنشر، بيروت ،1983
ردود الفعل الدولية على أول نوفمبر داخلياً وخارجياً، مولود قاسم نايت بلقاسم، الطبعة الأولى، قسنطينة، 1984
السياسة العربية والمواقف الدولية تجاه الثورة الجزائرية 1954-1962، إسماعيل دبش، طبعة دار هومه، الطبعة الأولى، الجزائر، 2007
سرّ تأخر العرب والمسلمين، الغزالي محمد، دار البعث، الجزائر، 1985
الشيخ البشير الإبراهيمي إمام في مدرسة الأئمة، محمد عمارة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
الشيخ البشير الابراهيمي كما عرفته، محمد فاضل الجمالي، مجلة الثقافة، العدد 87، الجزائر، مايو-يونيو 1985
الشيخ البشير الإبراهيمي عالم من أعلام العرب في القرن العشرين، عمر الحكيم، مجلة حضارة الاسلام، العدد 2، السنة السابعة، السعودية، 1966
عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مصطفى محمد حميداتو، سلسلة كتاب الأمة، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، قطر، 1997
عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والفكرية 1889-1940، بن رحال الزبير، دار الهدى، الجزائر
عبد الناصر وثورة الجزائر، فتحي الديب، دار المستقبل العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، 1984
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، دار الشهاب، الطبعة الخامسة، الجزائر، 1987
مجلة الشيخ البشير الإبراهيمي، بأقلام معاصريه، دار الأمة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 2007
محمد البشير الإبراهيمي في قلب المعركة 1954-1964، جمع وتصدير أبو القاسم سعد الله ، دار الأمة، الطبعة الأولى، الجزائر
المنار جريدة، الجزائر السنة 3، العدد 40، 10 أبريل 1953،
محمد البشير الإبراهيمي ودوره الفكري والسياسي 1889-1965، فهد مسلم زغير، الجامعة المستنصرية مجلة ديالي، العدد 63/ 2014
نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي، دار الفكر، بيروت